﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمۡ لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالٗا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمۡ قَدۡ بَدَتِ ٱلۡبَغۡضَآءُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَمَا تُخۡفِي صُدُورُهُمۡ أَكۡبَرُۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ ١١٨﴾ [آل عمران: 118]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لما شرحَ تعالى أحوالَ المؤمنين والكافرين شرعَ في تحذير المؤمنين في هذه الآية عن مخالطة الكافرين[1]، فحذَّر المؤمنين من اعتمادهم على هؤلاء، وشرح لهم حالتهم وكشفَ أستار النُّفوس المريضة وما يضمرونه للمؤمنين.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بِطَانَةً﴾: جذر الكلمة هو: (بَطَن)؛ البَطْنُ في كلّ شيءٍ خلافُ الظَّهر، كبَطْنِ الأَرْضِ وظَهْرِها، والمعنى المحوري هو: التعبير عن الجوف الدَّاخلي للشيء حيث يَخْفَى فيه ما يدخل إليه، وكالباطِنِ والظّاهر، وكالبِطانةِ والظِّهارة، يعني: باطن الثَّوب وظاهِره، قال الله ﷻ: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشِۭ بَطَآئِنُهَا مِنۡ إِسۡتَبۡرَقٖۚ﴾ [الرحمن: 54]، ولحافٌ مبطون ومُبَطَّنٌ. وبَطْنُ الرّاحةِ وظَهْر الكَفِّ، وبِطانةُ الرَّجل: وَليجَتُهُ من القَوْم الّذين يُداخِلُهم ويُداخِلُونه في دُخْلةِ أَمْرِهم. وبِطانتُه: سَرِيرتُه. وكذلك يقال: أَهْل بِطانته، والنِّعمةُ الباطنة: الّتي قد خصّتْ، والظّاهِرةُ: الّتي عمّت، قال الله تعالى: ﴿وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗۗ﴾ [لقمان: 20]. وأفرشني فلَان بطن أمره وظهره، أَي: سره وعلانيته. وَالْبَاطِن: خلاف الظَّاهِر[2].

والمعنى هنا: مقربين يعرفون دخائلَ أمورِكم.

2) ﴿يَأۡلُونَكُمۡ﴾: جذر الكلمة هو: (أَلَا)؛ ألا فلانٌ في عمله: قصَّر وأبطأ، ويستعمل

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/339.

(2) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (بطن).

عادةً مسبوقًا بأداة نفي كالآية الكريمة. ويقال: إني لا آلوكَ نُصْحًا، أي: لا أفتُر ولا أقصِّر. والأَلْوُ من الأضداد؛ ألَا يألو إذا فتَر وضَعُف، وألَا يألو إذا اجتَهد[1].

والمعنى هنا: لا يُقَصِّرون في.

3) ﴿خَبَالًا﴾: جذر الكلمة هو: (خَبِل): أَصْلٌ وَاحِدٌ يَدُلُّ عَلَى فَسَادِ الْأَعْضَاءِ، والعقول، والأفعال، ويُسْتَعْمَلُ بِمَعْنَى الشَّرِّ والفَسادِ مُطْلَقًا. فَالْخَبَلُ: الْجُنُونُ. ويقال: خَبَلٌ وخَبْلٌ وخَبَال، ويقال: خَبَلَهُ وخَبَّلَهُ فهو خَابِل، والجمع الخُبَّل، ورجل مُخَبَّل، يُقَالُ اخْتَبَلَهُ الْجِنُّ. وَالْجِنِّيُّ خَابِلٌ. وَيُقَالُ خُبِلَتْ يَدُهُ، إِذَا قُطِعَتْ وَأُفْسِدَتْ، ودَهرٌ خَبِلٌ: مُلْتَوٍ على أهله، لا يَرَوْنَ فيه سُرورًا. وقال ﷺ: ﴿مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ [التوبة: 47][2].

والمعنى هنا: في الفَسادِ والشَّرِّ.

4) ﴿عَنِتُّمْ﴾: جذر الكلمة هو: (عَنِت)؛ العَنَتُ: إدخالُ المشقّةِ على إنسانٍ. عَنِتَ فلانٌ، أي: لَقِيَ مشقّة. وتَعَنَّتُّه تَعَنُّتًا، أي: سألتُه عن شيءٍ أردتُ به اللَّبْسَ عليه والمشقَّة. والعظم المجبورُ يصيبه شيءٌ فيُعْنِتُه إعناتًا. وَأَعْنَتَهُ: أوقعه في الهلكة. وفي التنزيل: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ﴾ [البقرة: 220]، وقع فلان في العنت أي فيما شَقَّ عليه. وَأَعْنَتَهُ: هاضه. وأَعْنَتَ الطبيبُ المريضَ إذا لم يرفق به فضرَّه[3].

والمعنى هنا: مَشَقَّتَكم.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

ينهى اللّه تعالى المؤمنين أن يتّخذوا المنافقين من أهل الكتاب وغيرِهم أولياءَ من دون المؤمنين، يُطْلعونهم على أسرارهم، فهؤلاء لا يَفْتُرون عن إفسادِ حالِكم ولا يُقصِّرون في إفشالِكم، وهم يفرحُون بما يصيبُكم من ضررٍ ومكروهٍ، وهم يتطلَّعُون بلهفةٍ إلى هلاكِكم وتلفِكم، قد ظهر لكم منهم الكذبُ والشَّتمُ ومخالفةُ دينِكم بفلتاتِ لسانِهم، مع الحرص والمبالغة في ضبط أنفسهم، وما يُخفون في صدورهم من العداوةِ لكم أكبرُ وأعظمُ ممَّا

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، والزَّبيدي، تاج العروس، وأحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (ألا).
(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن سيده، المحكم، والزّمخشريّ، أساس البلاغة، والزّبيدي، تاج العروس: (خبل).
(3) الخليل، العين، وابن سيده، المحكم: (عنت).

يبدو لكم، قد بيَّنَّا لكم البراهينَ والحُجَجَ التي فيها مصالحُكم الدينيةُ والدنيوية؛ لتتعظوا وتحذروا، إن كنتم تعقلون عن الله مواعظه وأمره ونهيه، وهو ختامٌ بما يزيد أهلَ الإيمانِ في التَّحذير والانتباه، وفي التَّفرقةِ بين الصديق والعدوِّ[1].

عن عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما -؛ قال: كان رجالٌ من المسلمين يواصلون رجالاً من اليهود، لِمَا كان بينهم من الجوار والحِلْف في الجاهلية؛ فأنزل الله - عز وجل - فيهم؛ فنهاهم عن مباطنتهم تخوُّفَ الفتنةِ عليهم منهم؛ فأنزل: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَـٰبِ كُلِّهِۦ﴾[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دِلَالَةُ النَّهْيِ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ﴾:

في امْتِثَالِ نَوَاهِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ فَلَاحُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ

قوله: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً﴾؛ أي لا تستعينوا بأصْفِيَاء مِن غير ملّتكم، وقوله: ﴿مِّن دُونِكُمْ﴾ في موضع الصّفة لبطانة، وقدَّرَه الزّمخشريّ: مِن دُونِ أبناء جِنْسِكُم، وهُمُ المُسلمون.

ويَحْتَمِلُ أن تكون ﴿مِّن﴾ متعلِّقةً بقوله: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ﴾، أو أن تكونَ ﴿مِّن﴾ زائدةً، أي: بطانةً دُونَكُم، والمعنى: أنّهم نُهُوا أن يَتَّخِذُوا أَصْفِيَاءَ من غير المؤمنين.

ودَلّ هذا النَّهْيُ علَى المَنْعِ مِن اسْتِكْتَابِ أهلِ الذّمّة وتَصْرِيفِهم في البَيْعِ والشّراء والاسْتِبَانَةِ إليهم، وقد عتَبَ عُمَرُ بن الخطَّاب رضي الله عنه علَى أَبِي مُوسَى رضي الله عنه اسْتِكْتَابَهُ ذميًّا، وتلا عليه هذه الآيةَ، وقَد قِيلَ لِعُمَرَ بن الخطَّاب رضي الله عنه في كاتبٍ مُجيدٍ مِنْ نصارى الحِيرَة: ألَا يَكْتُب عَنْكَ؟ فقال: إذَنْ أَتَّخِذ بطانةً من دونِ المؤمنينَ[3].

وهذا النَّهْيُ على بابِهِ في الدِّلالةِ على الإلزامِ بالتَّرْكِ، وفيه

(1) ابن الجوزي، زاد المسير: 1/318، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 65، والموصلّي، أولى ما قيل: 2/530، ونخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 65.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 4/40.

(3) ابن جزي، التسهيل: 1/163، وأبو حيّان، البحر المحيط: 3/316.

معنَى النُّصحِ والإرشادِ أيضًا؛ لما في ذلك من تحقيق المصالِحِ في الدُّنيَا والآخرةِ.

بَلَاغَةُ الِاسْتِعَارَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ﴾:

وُجُـــوبُ تَـخَـيُّرِ الْمُسْلِمِ بِطَانَةَ الْخَيْرِ

بِطَانَةُ الرَّجُلِ: خَصِيصُهُ وصَفِيُّه الذي يُفْضِي إليه ثقةً به، وفي قوله تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ﴾ شُبِّه بِبِطَانَة الثَّوب، كما تقول العربُ: فُلَانٌ شِعَارِي، وعن النَّبِيِّ ﷺ: "الْأَنْصَارُ شِعَارٌ، وَالنَّاسُ دِثَارٌ"[1].

وقوله: ﴿مِّن دُونِكُمْ﴾ أي: من دُونِ أَبْنَاءِ جِنْسِكُم؛ وهُمُ الْمُسْلِمُون، ويجوز تعلُّقه بـ ﴿لَا تَتَّخِذُواْ﴾، وبـ ﴿بِطَانَةً﴾ على الوَصْفِ؛ أَيْ: بطانَةً كائِنَةً من دُونِكم مجاوِزَةً لَكُمْ[2].

وفيه تشبيهُ الأولياءِ بِالْبِطَانَةِ؛ فَذُكِرَ الْمُشبّهُ به، وهو البِطَانة، وحُذِفَ الْمُشبّه، وهُمُ الْأَوْلِيَاءُ؛ فَهِيَ استعارةٌ تَصْرِيحيَّةٌ؛ وأصلُها مِنْ بِطَانَة الثّوب، كما في قَوْلِهم: لَبِسْتُ فلانًا، إِذَا اخْتَصَصْتَه، وفلانٌ شِعَارِي ودِثَارِي[3]، وقوله: ﴿مِّن دُونِكُمْ﴾ هُوَ قَرِينَةُ الِاسْتِعَارةِ، وقولُه بعدُ: ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ مِنْ مُتَمّمات الاستعارةِ، وهي راجعةٌ على الْمُشَبّهِ الْمَحْذُوفِ - (الأولياءِ) -، فَتَكُونُ الاستِعَارَةُ مجرّدَةً.

ولفظ (دُون) من قوله: ﴿مِّن دُونِكُمْ﴾ يَقْتَضِي فيما أضيف إليه أنّه معدومٌ مِن القصّة التي فيها الكلامُ، فشبّه الأخِلّاءُ بما يَلِي بطنَ الإنسان من ثوبه[4]، ومن هذا المعنى قولُ النَّبِيِّ ﷺ: "مَا اسْتُخْلِفَ خَلِيفَةٌ إِلَّا لَهُ بِطَانَتَانِ: بِطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالخَيْرِ وَتَحُضُّهُ عَلَيْهِ، وَبِطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالشَّرِّ وَتَحُضُّهُ عَلَيْهِ، وَالمَعْصُومُ مَنْ عَصَمَ اللهُ"[5].

(1) رواه البخاري في صحيحه، الحديث رقم: (4330)، ومسلم في صحيحه، الحديث رقم: (1061).
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/406.
(3) الأبياري، الموسوعة القرآنيّة: 8/58.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/496.
(5) رواه البخاري في صحيحه، الحديث رقم: (6611).

بَرَاعَةُ الْمَجَازِ الْمُرْسَلِ فِي قَوْلِهِ: ﴿مِّن دُونِكُمْ﴾:

مِـنَ السِّيَاسَةِ الشَّرْعِيَّةِ التَّنَبُّهُ إِلَى حَقِيقَةِ مَنْ حَوْلَ الْمُسْلِمِينَ

يجوزُ في (مِنْ) من قَوْلِه: ﴿مِّن دُونِكُمْ﴾ أَنْ تَكُونَ زَائِدَةً، و(دُونَ) اسْمَ مَكانٍ بمعنَى: حَوْلَكُم، وهُو مجَازٌ مرسلٌ، علاقتُه: المحلّيَّة؛ إِذْ ذُكِر المَكَانُ وأُرِيدَ الحالُّون فيه، ونُكْتَةُ المجاز: تنبيهُ المؤمنين إلى حقيقةِ مَنْ حَوْلَهُم، مِمَّنْ ليسوا مِن ملّتهم، إِذ إنَّ دأبهم أنْ يكيدوا لَهم المكايد، ومِن نظائرِ هذه الآية قولُه تعالى: ﴿وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾ [التوبة: 16]. ثمّ إنّ مَن كان مباينًا لِغَيْرِه في المكانِ فَهُوَ مغايرٌ له، فجعل لفظ (دُون) مُسْتَعْمَلًا في مَعْنَى (غَيْر)[1].

نُكْتَةُ تَأْكِيدِ الذَّمِّ بِمَا يُشْبِهُ الْمَدْحَ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾:

مِـنْ مَحَاسِنِ الشَّرِيعَةِ قَرْنُ الْأَحْكَامِ بِعِلَلِهَا وَحِكَمِهَا

قوله: ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ لا يقصرون في خبالكم، والأَلْوُ: التَّقْصِيرُ والتَّرْكُ، وفِعْلُهُ: ألَا يَألو، وقد يتوسَّعون في هذا الفعل فيُعدّى إلى مَفْعُولَين، لأنّهم ضَمَّنُوه معنى المَنْعِ فيما يرغب فيه المَفْعُول، فقالوا: لا آلوك جهدًا، كما قالوا: لا أدّخرُك نُصحًا، فشاع ذلك الاستعمالُ حتَّى صار التّضمينُ مَنْسِيًّا، فلذلك تعدّى إلى ما يدلّ على الشّرِّ، كما يُعدَّى إلى ما يدلُّ على الخير، فقال هنا: ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾؛ أي لا يقصّرون في خَبَالِكُم، وليس المُراد: لا يمنعونكم، لأنّ الخَبالَ لا يُرْغَب فيه ولا يُسأل[2]، فجاءَ النّفي على معنى أسلوبِ تأكيدِ الذّمِّ بما يُشْبِهُ المَدْحَ، وفائدته: المُبَالَغَةُ في التَّحذيرِ مِن اتِّخاذِ أمثالِ هؤلاء أولياءَ مِن دُونِ المُؤْمِنين؛ ببيانِ عِلَّةِ النَّهْيِ المتقدِّم.

دِلَالَةُ التَّهَكُّمِ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾:

الْـفِـطْـنَـةُ مِـمَّـا تُـضْـمَـنُ بِـهِ مَصَالِحُ النَّاسِ

أصلُ الْخَبالِ: اختلالُ الأمرِ وفسادُه، ومنهُ سُمِّيَ فسادُ العقلِ: خبَالًا، وكذا فسادُ الأعضاء.

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/340.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/64.

ويحتمل أنّه اسْتُعْمِلَ (الخَبال) في هذهِ الآيَةِ على سَبيل التّهكّم بالبطانة؛ لأنّ شأن البِطَانَةِ أن يَسْعَوْا إلى ما فيه خيرُ مَن اسْتَبْطَنَهُم، فلمّا كان هؤلاء بضِدّ ذلكَ عُبِّرَ عَن سَعْيِهِم بالضُّرِّ، بالفِعْلِ الذي مِن شأنه أن يُسْتَعْمَلَ في السَّعْيِ بالخَيْرِ[1].

نُكْتَةُ الطِّبَاقِ الضِّمْنِيِّ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ﴾:

قوله: ﴿وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ﴾، أي ودّوا عَنَتَكُم، والعنَتُ: شدّة الضّرر والمشقّة، وأصلهُ: انْهِيَاضُ العَظْمِ بعدَ جَبْرِه، والوُدُّ: المحبَّة، فمعنى: ﴿وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ﴾ تمنّوا أن يَضُرُّوكم في دينكم ودُنْيَاكُم أشدّ الضّرر وأَبْلَغَه[2]، أو: رَغِبُوا فيما يُعْنِتُكم[3].

تَحَرِّي بِطَانَةِ السُّوءِ مَحَالَّ الشَّرِّ وَالضَّرَرِ لِإِيقَاعِ بِالْمُسْلِمِينَ

وقولُه: ﴿وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ﴾ أي: وَدُّوا الذي لا تودّونه، فيكون في الآية طِبَاقٌ ضِمْنِيٌّ؛ لأنَّ العَنَتَ لا يُوَدُّ، وفي هذا شدَّةُ المبالغة في التَّحذيرِ من بطانَةِ السُّوءِ، حيث إنَّهم يتحرَّونَ مواطِنَ الشَّرِّ والضَّرر للإيقاعِ بأهل الإسلام.

نُكْتَةُ تَعْدَادِ صِفَاتِ بِطَانَةِ السُّوءِ:

لمَّا كشَف اللّه تعالى دَخَائِلَ مَن حولَ المُسْلِمين مِن أهل الكتاب أتَمَّ كَشْفٍ؛ جاء موقعُ التَّحذيرِ من فَريقٍ مِنْهُمْ، والتَّحذيرُ مِنَ الاغترارِ بهم، والنَّهيُ عن الإلقاءِ إليهم بالمودَّة، وهؤلاءِ هُم المُنَافِقُون، وذلك لِلإِخْبَارِ عَنْهُم بقوله: ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾، وأكثرُهم مِنَ اليهود، دُون الذين كانُوا مُشْرِكِين مِنَ الأَوْسِ والخَزْرَجِ، وهذا موقعُ الاستِئْنَاجِ في صِنَاعَةِ الخَطَابَة بعدَ ذِكْرِ التَّمْهِيدَات والْإِقْنَاعَات، وحقُّه: الاسْتِئْنَافُ الابْتِدَائِيُّ كمَا هُنا[4].

بَيَانُ صِفَاتِ بِطَانَةِ السُّوءِ إِشْعَارٌ بِمَا يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ عَلَيْهِ بِطَانَةُ الْخَيْرِ مِنَ الْأَوْصَافِ

وقوله: ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ جملةٌ جاءَتْ بيانًا لِحَالِ البِطَانَةِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/64.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/406.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/64.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/62 - 63.

الكَافِرَةِ، وَهِيَ والجملُ التي بعدها سِيقَتْ لتنفيرِ المؤمنين عَنِ اتّخاذهم بطانةً مِنْ دُونهم، ثمّ نبَّهَ على أشياء مِمَّا هُمْ عليهِ مِن ابتغاءِ الغَوائِلِ لِلْمُؤمنين، ووَدَادَةِ مشقَّتِهم، وظهور بغضِهم.

والتَّقييدُ بالوصفِ أو بالحال يُؤْذِنُ بجَوَازِ الاتِّخَاذِ عندَ انْتِفَائِهِمَا[1]، ولذا فُصِّلَ في تَعداد الأوصافِ؛ لبيانِ أنَّها مقصودةٌ في الحكم، ومؤثِّرةٌ فيه، وإظهارًا للحكمةِ مِنَ النَّهي، وإيماءً إلى ما يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ عَلَيْهِ البِطَانَةُ؛ من كونها مسلمةً، ناصحةً، ترغَبُ فيما يرغَبُ فيه أهلُ الإسلامِ عادةً من مصالحِ الدُّنيا والآخرة، مُظهِرةٌ للوُدِّ في المقالِ والفِعالِ.

دِلَالَةُ حَذْفِ حَرْفِ الْعَطْفِ (الْوَاوِ) فِي تَعْدَادِ صِفَاتِ الْبِطَانَةِ:

تَتَكَامَلُ الصِّفَاتُ فِي بِنَاءِ نُفُوسٍ مُسْتَقِرَّةٍ عَلَى الْخَيْرِ أَوْ مُتَهافِتةٍ عَلَى الظُّلْمِ وَالْعُدْوَانِ

حرف العطفِ (الواو) مشعِرٌ بالمغايرةِ، فمتى وُجِدَ آذنَ ذلك بالتَّغاير بين الجملتَيْن، ومتَى حُذِفَ الواوُ كان إعلامًا باتِّصال الجُملةِ الثَّانيةِ بالأولى، والتحَامِها بها، حتَّى كأنّها إحدى متعلقاتها[2].

ومِنْ ذلكَ قولُه تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾، فإنّ التّقدير: وَوَدُّوا ما عَنِتُّم، وقَدْ بَدَتِ البَغْضَاءُ مِن أفواههم، فلمّا حُذِفَت هذه الواوُ؛ كان الكلامُ مَعَ حَذْفِهَا أدخلَ في الإعجاز، وأحسنَ في الاخْتِصَارِ والإيجاز، وأبلغَ في تأليفه ونظمه، وأحلى في سياقه وعذوبة طعمه[3]، وفيه إيذَانٌ بأنَّ من شأنِ بطانَةِ السُّوءِ أن تجتَمِعَ فيها هذه الصِّفاتُ، لا تكاد تنفكُّ واحدةٌ عنهم.

حِرْصُ أَهْلِ الشَّرِّ وَالْفَسَادِ عَلَى إِلْحَاقِ مَا اسْتَطَاعُوا مِنَ الضَّرَرِ بِأَهْلِ الْإِسْلَامِ

دِلَالَةُ التَّرَقِّي فِي قَوْلِهِ: ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ﴾:

الفرق بين قولِه: ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ وبينَ قولِه: ﴿وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ﴾ في المعنى من وُجُوهٍ:

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/316 - 317.
(2) العلوي، الطّراز: 2/60.
(3) العلوي، الطّراز: 2/60.

أحدها: لا يُقصِّرون في إفسادِ دينِكُم، فإن عَجَزوا عنه ودُّوا إِلْقَاءَكُم في أشدِّ أنواع الضُّرِّ.

ثَانِيها: لا يُقصِّرون في إِفْسَادِ أُمُورِكم في الدُّنيا، فإِذَا عَجَزُوا عَنْهُ، لم يَزُلْ عن قلوبِهِمْ حُبُّ إعناتِكُم.

ثالثُها: لا يُقصِّرون في إفساد أمورِكُم، فإنْ لم يفعَلوا ذلك لِمَانِعٍ من خارجٍ، فحُبُّ ذلك غيرُ زائلٍ عن قلوبِهِم[1].

وفي هذا إيماءٌ إلى أنَّ أهل الشَّر والفسادِ يَبْذُلُونَ في سبيل إلحاق الضَّرَر بأهلِ الْإِسْلَامِ مَا اسْتَطَاعُوا، فإنْ عجَزُوا عن ذَلِكَ؛ بقيَ حبُّ إيقاعِ الضَّرَرِ قَائمًا في قلُوبهم، مُتَحيِّنين بِذَلِكَ الْفُرَصَ لِإِنْفَاذِهِ.

وَجْهُ نَصْبِ ﴿خَبَالًا﴾ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾:

التَّوْجِيهُ النَّحْوِيُّ لِآيِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ يُثْمِرُ مَعَانِيَ مُتَنَوِّعَةً لَا مُتَضَارِبَةً

قولُه تعالى: ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ من قولهم: ألَا في الأمر يَأْلُو؛ إذا قصَّرَ فيه، ثُمَّ استُعْمِلَ مُعَدًّى إلى مفعولين في قَوْلِهِم: لا آلُوك نُصْحًا، ولا آلوك جُهْدًا، على إرادةِ التَّضْمِين، والمعنى: لا أَمْنَعُكَ نُصْحًا ولا أُنْقِصُكَهُ[2].

ويتعدَّى الفعلُ (أَلَا) إلى مفعولٍ واحدٍ بحَرْفِ الْجَرِّ، تقول: ما أَلَوْتُ في الأمر، أي: ما قصَّرتُ فيه.

ويحتَمِلُ أن يكون قوله: ﴿خَبَالًا﴾ قد انتصب على التَّمييز المنقولِ من المفعول، كقوله تعالى: ﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا﴾ [القمر: 12]؛ والتّقدير: لَا يَأْلُونَ خَبَالَكُم، أي: في خبالكم، فكان أصلُ هذا المفعولِ حرف الجرِّ.

ويجوزُ أَن يكون انتصابُه على نزع الخافضِ، والتّقدير: لا يَأْلُونَكُم في تَخْبِيلِكُم، أو يكونَ انتصابُه على أنّه مصدرٌ في موضع الحال،

(1) الرّازي، مفاتح الغيب: 8/341.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/406.

قال ابن عطية: "معناه: لا يقصِّرونَ لكم فيما فيه الفساد عليكم، فعلى هذا يكون قد تعدَّى للضَّميرِ على إسقاط (اللّام)، ولِلْخَبَالِ على إسقاط (في)"[1].

وكلُّ هذه التَّوجيهاتِ تُؤدِّي معنًى متقاربًا، ولا تعارُضَ بينَهَا ولا تضارُبَ.

دِلَالَةُ الْأَفْعَالِ الْمَاضِيَةِ: ﴿وَدُّواْ﴾ و﴿عَنِتُّمْ﴾ و﴿بَدَتِ﴾:

الإسْتِمْرَارُ فِي أَفْعَالِ الشَّرِّ يُورِثُ رُسُوخَهَا وَثَبَاتَهَا فِي النُّفُوسِ

الأفعَالُ: ﴿وَدُّواْ﴾ و﴿عَنِتُّمْ﴾ و﴿بَدَتِ﴾: أفعالٌ ماضيةٌ، وقد دلّت على رُسُوخِ هذهِ الصِّفاتِ عندَ أصحابِها، فقد أبانَتْ عنْ مودَّتِهم لِمَا يَضُرُّ بالمُؤْمِنين، وأوضحَتْ حالَ إبدائِهمُ البَغضاءَ جليًّا، فهذه الأوصافُ لبطانةِ السُّوءِ ليست أوصافًا عارضةً يُرجَى زوالُها وانكشافُها، وإنَّما هي متجذِّرةٌ فيهم، وهم متحقِّقُونَ بها غايةَ التَّحقُّقِ.

بَلَاغَةُ الِاسْتِعَارَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾:

الْكَلِمَاتُ الْمَقَالِيَّةُ تَنِمُّ عَنِ الْخَفَايَا الْقَلْبِيَّةِ

البَغضاء: أشدُّ البُغضِ، فالبُغض مع البَغضاء كالضُّرِّ مع الضَّرَّاء[2]، وجاءَ التَّعبير عنهم في قوله تعالَى: ﴿قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾؛ لكونِهم لا يتمالكون مع ضبطهم أنفُسَهُم، وتَحَامُلِهم عليها: أَنْ يَنْفَلِتَ مِن ألسِنَتِهم مَا يُعلَم به بغضُهُم لِلْمُسْلِمين[3]، وهذا دالٌّ على شدَّةِ حنَقِهم على المسلمين وكراهِيَتِهم لهم.

ومَعْنَى قوله: ﴿قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾: ظَهَرَتْ مِن فَلَتَاتِ أَقْوَالِهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾ [محمد: 30]، فعبّر بالبَغْضَاءِ عَن أدلَّتِهَا[4]، وفي هذا التَّعبير مجازٌ مرسَلٌ، علاقتُهُ اللَّازِميَّةُ؛ إذْ أُطلقَ اللَّازِمُ وهو البغضاء القلبيَّةُ، وأُريد الملزومُ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/317.
(2) الرّازي، مفاتح الغيب: 8/341.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/406.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/64.

وهو أدلَّتُها المقاليَّةُ، ونكتةُ المجاز: الإشعارُ بشدَّة البغضاء التي في قلوبِهم، حتَّى كأنَّ الظَّاهرَ منها هو عينُ البغضاءِ لا مجرَّدُ أدلَّتها.

فقوله تعالى: ﴿قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ يعني: الأقوال، فَهم فوق المُتَستِّر الذي تبدُو البَغْضَاءُ مِنْ عَيْنَيْهِ.

وقدْ خَصّ اللّٰهُ تعالى الأفواهَ بالذِّكر دُونَ الأَلْسِنة؛ إشارةً إلى شَدَقِهم وثَرْثَرَتِهم في أقوالِهم هذه[1].

دِلَالَةُ الْمُقَابَلَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾:

أَهْـلُ الْبَـاطِـلِ يُـعَـادُونَ أَهْـلَ الْـحَـقِّ ظَـاهِـرًا وَبَاطِنًا

لمّا ذكَرَ اللّٰهُ تعالى ما انْطَوَوْا عليه من وِدَادِهم عَنَتَ المُؤْمِنين، وهو إخبارٌ عن فِعْلٍ قلبيّ؛ ذَكَرَ مَا أَنْتَجَهُ ذلك الفعلُ القلبيُّ من الفعلِ الظَّاهرِ، وهو بُدُوُّ البُغض مِنْهُم للمؤمنين في أقوالهم، فجمعوا بذلك بَيْنَ كراهَةِ القُلُوب وبذاءَةِ الألسُن[2]، ثمَّ ذكَر أنَّ ما أَبْطَنُوهُ مِنَ الشَّرِّ والإيذاءِ للمؤمنين والبُغْضِ لهم أَعْظَمُ مِمَّا ظهر مِنْهُمْ، فقال: ﴿وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾، وقابل البُدُوَّ بالإخفاءِ، والأفواهَ - المُنبئةَ بالظَّاهرِ - بالصُّدور - المشعِرَةِ بالباطن -؛ زيادةً في البيانِ؛ فإنَّ الضدَّ يُظْهِرُ قيمةَ ضدِّه حسنًا أو قبحًا.

بَلَاغَةُ الْمَجَازِ الْمُرْسَلِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾:

بُغْضُ أَهْلِ الشَّرِّ وَالْـفَسَادِ لِأَهْلِ الْخَيْرِ وَالصَّلَاحِ مَـلَأَ جَـمِـيـعَ قُلُوبِهِمْ

قوله: ﴿وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ أي: قلوبهم التِي في الصُّدور؛ فإنَّ القلوبَ هي محلُّ البغضاءِ، فهو مجازٌ مرسَلٌ، علاقتُهُ المحلّيَّة؛ إذْ أُطلق المحلُّ وهو الصدر، وأُريد الحالُّ فيه وهو القلب، ونكتَةُ المجاز: الدِّلالةُ على شدَّة البغضاء، حتَّى كأنَّ قلوبهم لم تستوعِبْهَا فانتقلتْ إلى أجزاءٍ مجاورةٍ له.

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/496.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/317 - 318.

مُنَاسَبَةُ الْفَاصِلَةِ ﴿تَعْقِلُونَ﴾ لِمَضْمُونِ الْآيَةِ:

تَزْبِيَةُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى إِعْمَالِ الْفِكْرِ وَالِاسْتِدْلَالِ

قوله: ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْآيَـٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾، أي: الآياتُ الدَّالَّة على وجوب الإخلاص في الدّين، ومُوالاةِ المُؤْمِنِينَ، ومُعَادَاةِ الكفّار[1]، أو أنَّ المرادَ: بيَّنَّا لكم الأدلَّةَ الدَّالَّةَ على سُوءِ نَوَايَا هذهِ الْبِطَانَةِ، فلَم يَزَلِ القُرآن يُربِّي هذه الأمَّة على إعمالِ الفِكْرِ، والاسْتِدْلال، وتَعَرُّف المسبَّبَات مِن أسبابها في سائر أحوالِها؛ في التَّشريعِ والمُعاملة، ليُنشِئَهَا أمّةَ علمٍ وفطنةٍ.

ولَمَّا كانتْ هَذِهِ الآياتُ آياتِ فراسَةٍ وتوسُّم؛ قال: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾، ولم يَقُل: إنْ كُنْتُم تَعْلَمُون أو تَفْقَهُون؛ لأنَّ العقل أعَمُّ مِنَ العلمِ والفِقْهِ.

وجملة ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْآيَـٰتِ﴾ مستأنفة[2] استئنافًا بيانيًّا؛ لوقوعِهَا جوابًا عن سؤالٍ يُفْهَمُ ممَّا قبلَهَا؛ وذلك أنَّ اللّه تعالى فصَّل في صفاتِ بطانةِ السُّوءِ، فأورثَ ذلك سؤالًا في نفس المتَلَقِّي؛ وهو: لِمَ فُصِّلَ في ذِكْرِ أوصافِ هؤلاءِ، فجاء الجواب: ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْآيَـٰتِ﴾.

دِلَالَةُ حَذْفِ مَفْعُولِ ﴿تَعْقِلُونَ﴾ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾:

مِنَ الْحِكْمَةِ فِي الْإِقْنَاعِ اتِّبَاعُ أُسْلُوبِ سَوْقِ الْمَعْلُومِ مَسَاقَ غَيْرِهِ

﴿تَعْقِلُونَ﴾ من قولِ اللّهِ تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ فعلٌ متعدٍّ، ومفعولُه محذوفٌ، والتَّقدير: تعقِلُونَ مَا بيَّن لَكُمْ، فَعَمِلْتُم به.

ويحتمِلُ أن يكون قد نُزِّلَ الفعلُ المتعدِّي منزلةَ اللَّازِمِ، والمعنى: إنْ كُنْتُم عُقَلَاءَ.

وفي هذا سوقُ المعلوم مساق غيرِهِ - وهو المسمَّى في غير القرآن: تجاهُلَ العارفِ -؛ لأنَّ اللّه سُبْحانه قَد عَلِمَ أنَّهم عُقَلَاءُ، لَكِنْ عُلِّقَ الشَّرطُ على هذا النَّحْوِ لِهَزِّ النُّفُوسِ وبعثِهَا على الامتثالِ[3]، كقَوْلِكَ:

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/406.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/65.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/496.

إِنْ كُنْتَ رَجُلًا فَافْعَل كذا، قال ابن جرير: "معناهُ: إنْ كنتُم تعقلُون عن الله أمرَهُ ونهيَهُ، وقيل: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾، فلا تُصَافُوهُم، بل عاملوهم معاملة الأعداء، وقيل: معنى ﴿إِن﴾ مَعْنَى (إذ)؛ أي: إذ كنتم عقلاء"[1].

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

المعانتة والمُعاندة:

قوله: ﴿وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ﴾ قال ابن جرير: "فإنه يعني: ودُّوا عنَتَكم، يقول: يتمنَّون لكم العنَتَ والشرَّ في دينكم وما يسوءكم ولا يسرُّكم"[2]. وقال الراغب: المعانتة كالمُعاندة، لكن المعانتة أبلغ؛ لأنَّها مُعاندة فيها خوفٌ وهلاك، ولهذا يُقال: عنَتَ فلانٌ؛ إذا وقع في أمرٍ يُخافُ منه التّلف. والمعانتةُ أن تتحرَّى مع المُمانَعَةِ المَشَقَّةَ. والعَنِيدُ المُعجَبُ بما عندَهُ، والمُعاند المُباهي بما عندهُ[3]. فـ(العنت) فيه معنى المشقة والتّلف على خلاف (العند) الذي فيه معنى الإصرار والتّباهي.

أفواههم وألسنتهم:

الأفواه جمع الفَم، والفَم أصله فَوْهٌ، يقال: فَوْهٌ وأفواهٌ، ويقال رجل مفوَّهٌ إذا أجاد القول، وأفْوَهُ إذا كان واسعَ الفَم، فثبت أنَّ أصل الفم (فَوْهٌ) بوزن سَوْط، ثم حذفت الهاء تخفيفًا، ثم أقيم (الميم) مقام (الواو)؛ لأنّهُما حرفان شفويان[4].

قوله: ﴿قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾؛ أي لا يكتفون ببغضكم بقلوبهم حتى يصرِّحوا بذلك بأفواههم. وذكر الأفواه دون الألسنة؛ إشعارًا بأنَّ ما تلفَّظُوا به يملأ أفواههم، كما يقال: كلمةٌ تملأ الفم، إذا تشدَّقَ به. وقيل: المعنى لا يتمالكون مع ضبطهم أنفسهم وتحاملهم عليها أن ينفلت من ألسنتهم ما يُعلمُ به بغضُهم للمسلمين[5]. والألسنة تدلُّ على اللّغات أكثر من دلالتها على الكلام؛ قال تعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشّعراء: 195]، وقال: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾ [الرّوم: 22].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/318.
(2) جامع البيان: 5/709.
(3) الراغب، المفردات: (عند).
(4) الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/341.
(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/434، وأبو حيّان، البحر المحيط: 3/317، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/76، والقاسمي، محاسن التأويل: 2/394.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الخامس، سورة آل عمران من الآية 39 إلى الآية 140
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة آل عمران من الآية 39 إلى الآية 140 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 5 ، 800 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-57-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 5 : سورة آل عمران من الآية 39 إلى الآية 140.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-57-6
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-1170694 بتاريخ 2023/03/14م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»